لغة الجسد في التراث البلاغي،
كتاب البيان والتبيين للجاحظ نموذجا.

د. بوضياف محمد الصالح
المركز الجامعي- النعامة

الملخّص:

لقد فطن العرب مبكّرا إلى طرق تواصلية متباينة تخدم أغراضهم وتجمع خصائصهم، فتركّزت عنايتهم على اللغة، وأجمعوا على أنّها أهمّ عامل في ذلك، فنالت حظّها بالدراسة والتحليل، ولم تقتصر عنايتهم عند هذا فحسب؛ بل توصّلوا إلى وسائل اتّصال غير لفظية تحلّ محلّ اللّغة، فكانت لغة الجسد أهمّ هذه الوسائل وأنجعها، إذ إنّها تعرب عن الخطاب المبطّن، وتترجم عن كلّ ما يفرزه المحيط من معان اجتماعية أو إنسانية خبيئة لا تُفصح عنها السبل المباشرة المعهودة.

ولعلّ في كتابات البلاغيين ما يؤكّد ذلك، حيث نجد الجاحظ(ت255ه) مثلا في كتابه البيان والتّبيين يشير في أكثر من موضع إلى لغة الجسد، كحديثه عن خصائصه وهيئته، وبسط الوجه والإشارة بالعين أو اليد. وحسبُنا من هذه الورقة أن نقف على مدى اهتمام البلاغيين بهذه اللغة، وما أُنط لها من دور في التواصل ونقل الأفكار والمسمّيات، على أن يكون كتاب البيان والتبيين موضع الشاهد في الدراسة.

الكلمات المفتاحية: اللغة – الاتصال- الجسد- البلاغة - - الجاحظ.

Abstract:

Ancient Arabs tried to find ways of communication and acquaintance and found the way to express body and movements. The linguists wrote about this phenomenon in books and books.

If tired old Arabic poetry we found many poets have mentioned these physical signs of facial features and expression by hand, mouth and eyes.

And on this basis we wanted to address this phenomenon in the Arab heritage, and the book of "al-djahidh" "al-bayane w at-tabyine " is the field of study and research

Key words: Language - Communication - Body - Rhetoric al- -jahidh

يعدّ موضوع الاتّصال العصب الحساس في ميدان المعرفة ونقل العلوم، لذلك نجد أنّ وسائل الاتّصال وأنماطها تتعدّد بتعدّد الفئات والجماعات، فهناك اتّصال لفظي يرتكز على الكلام باعتباره إحدى وسائل الاتصال المتاحة لكثير من الناس، وهناك اتّصال غير لفظي يرتكز على قنوات أخرى مختلفة تؤدّي الوظيفة نفسها، قد تكون سمعية أو بصرية أو إشارية حركية، وقد اشتغل الباحثون على اختلاف مشاربهم من لغويين وفلاسفة وعلماء الاجتماع والتربية والنفس والانثربولوجيا وغيرهم على هذا الموضوع، فنال اهتمامهم وأولوْه عناية خاصة لأنّه يعدُّ بحقّ حجر الزاوية في ميدان المعرفة ونقل العلوم، ومن هنا بان لنا أن ننظر إلى موضوع الاتّصال غير اللفظي في تراثنا العربي القديم، فرأينا أن نقف عند بعض الجهود البلاغية في هذا الموضوع.

أوّلا: لغة الجسد في التراث البلاغي:

أُطلقت على الاتّصال غير اللّفظي عدّة تسميات؛ منها الاتّصال الجسدي، واللغة الجسدية، والكلام الجسدي، والحركة الجسمية، والسلوك الحركي، وعلم السلوك الحركي، والتعبير بالوجه، أو التّمثيل بالإشارات، واللغة الصامتة

ونحوها[1]، ولماّ كانت سلوكات الجسد وحركاته تنمّ عن لغة ما وتختزلها بدلَ أن تعرب عنها بالألفاظ والعبارات كان لابدّ أن تكون لغة الجسد أهمّ أساس في هذا النوع من الاتّصال.

01- علاقة البيان بلغة الجسد عند الجاحظ:

يعدّ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت 255هـ) مِن أوائل علمائنا القدامى الذين فطنوا إلى مسألة الاتّصال غير اللّفظي، ودور هذه القناة في الكشف عن المعنى والإحاطة بالفهم وإدراك المغزى من الاتّصال، فكان كتابه البيان والتّبيين دليلا علميا حاز به قصب السبق، فقد حدّ البيان بأنّه الدّلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ، ونبّه إلى أنّه اسم جامع لكلّ شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتّى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان الدّليل[2]، فظهر للعيان أنّ البيان أوسع من أن تُفصِح عنه طريقة من الطرق، أو أن نكتفي بالدّليل اللفظي فقط. فإلى جانب الدليل اللفظي يمكن أن يتّسع لدلائل أخرى، تؤدّي وظيفة التّبليغ وتوضيح المعنى، إذ مدار الأمر على الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع[3].

والإفهام والدلالة التي يحدّثنا عنها الجاحظ ليست ببعيدة عن مفهوم الاتّصال، وبذلك يكون قد طرق هذين النوعين من الاتّصال؛ اللفظي وغير اللفظي، وعرفهما، بل:"وضع يده عليهما مستعملا هذه المصطلحات ذاتها. لقد نظر الجاحظ إلى أصناف الدلالات على المعاني من جهة اللفظ، فجعلها في نوعين رئيسين: الدلالة اللفظية على المعنى، والدلالة غير اللفظية"[4]، ومن جهة الدلالة على المعنى باللفظ وغير اللفظ، تضمُّ أصناف الدلالات عنده خمسة أنواع؛ أوّلها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخطّ، ثمّ الحال التي تسمّى نصبة، وهي خمسة أنواع متباينة تجتمع لتأدية المعنى والكشف عنه، ولعلّ في ترتيبها إشارةً إلى تمايزها في كثرة الاستعمال أكثر من تمايزها في الوظيفة، فإذا كانت اللحمة الجامعة بينها هي الكشف والإبانة، فإنّ لكلّ نوع وظيفته الخاصّة التي:"عينت له محلا طبيعيا في هذا التمييز، ومن ثمّ يسقط التفاضل الوظيفي بينها، ليقوم التكامل"[5]، يقول الجاحظ:" وجميع أصناف الدلالات من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أوّلها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخطّ، ثمّ الحال التي تسمّى نصبة، والنصبة هي الحالة الدالّة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكلّ واحد من هذه الخمسة صورة بائنة عن من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثمّ عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعم خاصّها وعامّها، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ، وعمّا يكون منها لغوا بهرجا وساقطا مطرحا"[6]، فاللفظ أساس الدلالة اللفظية على المعنى، بينما تبنى الدلالة غير اللفظية على الأنواع الأربعة المتبقية[7]، وما يهمّنا على وجه التخصيص هو حديثه عن الإشارة، إذ إنّها رأس العلامات غير اللفظية، فمن ترتيبه السابق نلاحظ أنّها تحتل مكانة سامقة تؤهّلها أن تكون في طليعة العلامات غير اللفظية في الإبانة عن المعاني والمكنونات، وإذا كان اللفظ هو المعتمد في الاتصال اللفظي، فإنّ الإشارة التي عناها الجاحظ لا تقلّ شأنا عن وظيفة اللفظ، فهي اصطلاح يتّسع لجميع أشكال السلوكات الجسدية والتعبيرات الحركية، كتعبير العين والوجه، والحركات الجسمية المتنوعة، الإشارة عنده باليد، وبالرأس، وبالعين، والحاجب، و المنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف[8]، ففي قوله:"إذا تباعد الشخصان" دليل على تفطّنه إلى قضية المسافات التي تفصل بين المشاكريْن في الاتّصال، وما لهذه الأخيرة من دور في تحديد السلوك الحركي، ولغة الجيد التي يستعينون بها، كما يلاحظ الجاحظ الوظيفة الاتصالية المنوطة بالإشارة، وتفاوت هذه الوظيفة بتفاوت هيئة الإشارة، وهو ما يعبّر عنه قوله:"وقد يتهدّد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا"[9].

وفي معرض حديثه عن الإشارة تطرّق إلى العلاقة والوظيفة التي تجمع بينها وبين اللفظ أو المنطوق من ناحية، وفي نيابتها عنه من ناحية أخرى، حيث يقول:"والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ"[10]، كما تنبّه إلى دور الإشارة في إخفاء ما يريد المرسِل إخفاءه، على عكس اللفظ المنطوق الذي قد لا يؤدي ذلك، ففي الإشارة إمكانية الستر على خلاف المنطوق الذي يمثّل قناة سمعية آلته الصّوت،

وفي هذا يقول:"وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة، من أمور يسترها بعض الناس عن بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس"[11]، أمّا عن ربط الكلام بلغة الجسد أو السلوك الحركي فإنّنا لا نعدم ذلك عند الجاحظ، فقد أبان عم ذلك بقوله:"وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان"[12]، وأبعد من ذلك فقد قسّم مفهوم الإشارة نوعين؛ قريب وبعيد، فأمّا :"أقرب المفهوم منها فرفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليّ الشفاه وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلويَ بثوب من مقطع جبل تجاه عين الناظر، ثمّ ينقطع عملها ويدرس أثرها ويموت ذكرها"[13]، فإذا أردنا تقفّي هذا الجانب النظري المشرق عند الجاحظ فإنّنا نلملمه على هذا النحو:

- تنبّه الجاحظ إلى الدور التواصلي الذي تؤدّيه الوسائل غير اللفظية، والحركات الجسمية، وقد قسّمها إلى ثلاثة أقسام؛ قسم يصاحب الكلام لإيضاحه، وقسم يستقلّ بنفسه، وقسم يدخل في باب اللغة السّريّة أو الإشارة الخفيّة، لاسيما عندما يكون المراد تبادل رسالة بين اثنين دون إفشائها. وهو ما يصوّره الشاعر عمر بن أبي ربيعة في قوله:[14]

أشارت بطرف العيْن خيفةَ أهلها إشارة مذعــور لم تتكـــلّم
فأيقنتُ أنّ الطّرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيّم

- لقد استطاع الجاحظ أن يقسّم أنواع الدلالات تبعا لطريقتها، فمنها لفظي، ومنها غير لفظي.
- المزاوجة في وظيفة الاتّصال بين اللفظ والإشارة، وتكملة أحدهما لوظيفة الآخر، من ذلك قوله:"ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يُخبروا مَن دونهم عن هذه المعاني بكلام وجيز يغني عن التفسير باللسان والإشارة باليد والرّأس لما قدروا عليه"[15].
- وعيه التام بمسألة الإشارة، فقد تستعيض بالإشارة عن اللفظ.
- تأدية المعنى بالإشارة كفيل بنقل المعلومة ونجاح الاتصال في سرية وخفاء.
- يستعمل الجاحظ مصطلح الإشارة استعمالا عاما، فقد تعني عنده التلميح باليد، والإعراض بالوجه، كما تعني تعبيرات العين والحاجب والمنكب، فهي لغة تنطلق من الجسد، لتصل إلى المعنى المراد.
- تعدّ الإشارة أهمّ أنواع الدلالات صلة باللغة، فقد كاد حديثه يقتصر عليها، ما يبدو على ملامح المتكلّم وقسماته أو ما يقوم به من حركات تلمحها عين الناظر.
- ارتبط مفهوم العبارة بالإشارة عند الجاحظ كثيرا، وقد مرّت معنا بعض الإشارات عند الحديث عن البيان، وما يقصده الجاحظ بالإشارة هو نفسه ما يصطلح عليه لغة الجسد، إذ نراه يحدّثنا عن أنّ أنطق الناس هو الذي رأيته لا يستغني بمنطقه عن الإشارة، وقد استدلّ بمثالين:

أوّلهما: جعفر بن يحيى البرمكيّ الذي كان من أنطق الناس، فقد جمع الهدوء والتّمهّل والجزالة والإفهام المغني عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عنها كما استغنى عن الإعادة، وقيل عنه: كان لفظه في وزن إشارته" وثانيهما أبو شمِر الذي ضرب صفحا عنها حتى حين، فقد كان إذا تكلّم لم يحرّك يديه ولا منكبيه ولم يقلّب عينيه، ولم يحرّك رأسه وقد عيب عليه ذلك، حتّى كأنّ كلامه إنّما يخرج من صدع صخرة، ومذهبه أنّ المنطق ليسس من حقّه أن يُستعان عليه بغيره، حتّى كلّمه أحدهم فاضطرّه بالحجّة فغدا ممّن يسترفدها، ويستعين بها على البيان والإفهام، فصار يحرّك يديه، ويحلّ حبوَته".

إنّ المتتبّع لنصوص الجاحظ يلاحظ تطوّرا في مفهوم الإشارة من كونها نوعا من أنواع الدلالات على المعاني إلى معنى آخر لصيق بنظريته البلاغية والأدبية العامّة، ومحرّك ذلك تفطّنه إلى قدرة اللغة على تجاوز قصورها قدرة ذاتية بما يكمن فيها من طاقات يصبح الخطاب، بتوظيفها وتفجيرها، قادرا على رسم شبكة من العلاقات والمسارب إلى المعنى يُستغنى بها عن حضور قائله، وأهمّ تلك القدرات طاقة الإيحاء التي تصبح من بعض الجهات الرّديف الأدبيّ لمفهوم الإشارة في التخاطب العادي[16]، ولعمري هذا هو عين ما يقصد به في الاتّصال لغة الجسد.

من أصناف الدلالات، فهي عند غيره قد تدخل تحت باب ائتلاف اللفظ بالمعنى، كأن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء أو لمحة تدلّ عليها[17] ، ولعلّ هذا شبيه بما نجده عند الجاحظ في موضع آخر إذ ربطها بالوحي والحذف[18]، وإلى ذلك المعنى الأوّل ذهب جمع كبير من البلاغيين أمثال العسكري(ت395ه) والباقلاني(ت403ه) وابن سنان الخفاجي(ت466ه) وأضرابهم[19]، بيد أنّ الإشارة التي كان يعنيها الجاحظ هي غير الإشارة التي نجدها عند البلاغيين فيما بعد.

وبذلك يكون الجاحظ قد فتح بابا واسعا في هذا المجال، إذ تبعه الرماني في الاستدلال على البيان بأنّه الإحضار لما يظهر به تميّز الشيء من غيره في الإدراك، وقد اكتفى الرماني بجعله في أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة[20]، ولئن كانت هذه الإشارات لا تعدو أن تكون مجرّد مسائل تنظيرية مبثوثة في كتابه البيان والتبيين، فإنّ الدراسة تسعى في الصفحات الموالية التركيز على بعض الشواهد المبطّنة في بعض الكتب البلاغية، لاسيما ما ورد في كتاب البيان والتبيين.

02- وظيفة لغة الجسد في تشكيل المعنى:

إنّ المعنى يتشكّل من رافدين؛ رافد مقامي، ورافد مقالي، ومن الرافد المقامي ثنتسب لغة الجسد، فقد تغني الحركات والإشارات التمثيلية والتعبيرات الجسدية عن النطق أو الكلام، ومن غريب ما نجده في شعرنا العربي ما ذكره ابن رشيق(ت453ه) من أنّ أبا نواس الشاعر كان قد طَلَب منه جلساؤه يوما أن يقول شعرا لا قافية له، فانطلق قائلا:[21]

ولقد قلتُ للمليحة قولي مِن بعيد لمَن يحبّك: (إشارة قبلـــة)
فأشارت بمعصم ثمّ قالت من بعيد خلافَ قولي: (إشارة: لا لا)
فتنفّستُ ساعة ثمّ إنّي قلتُ للبغل عند ذلك (إشارة: امشِ)

فتعجّب من حضر مجلسه من اهتدائه وحسن تأتّيه.

فالمعنى لشهود تلك الحضرَة فهو بيّن لا محالة بالإشارة ولغة الجسد. بل جعل حسن الإشارة باليد والرّأس من تمام حسن البيان باللسان، يقول ابن رشيق:"وقالوا مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت، فهذا باب تتقدّم الإشارةُ فيه الصوتَ. وقيل حسن الإشارة باليد والرّأس من تمام حسن البيان باللسان"[22]، وهو أمر قد سار عليه الجاحظ من قبل وعمِد إلى تبيانه في أكثر من موضع، فالتّواصل قد لا يحدث دوما باللسان أو اللغة، بل نستعيض أحيانا بعوامل أخرى تغني عن الكلام والقول والتصريح، والملاحظ عند ابن رشيق أنّ الإشارة عنده أوسع حالا؛ حيث تشتمل على غرائب الشعر ومُلحه، والتفخيم والتلويح، والكناية والتمثيل والرمز، واللمحة واللغز، والتعمية[23].

وقد تعرب لغة الجسد عمّا تكنّه النّفس فتشكّل معنى في النفس غير الذي تريد البوح به،رُوي عن يزيد بن الحكم أنّه رأى أحدهم يبتسم في وجهه، واستطاع أن يميّز الابتسامة من عدمها، فقال[24]:

تكاشرني نصحا كأنّك ناصح وعينك تبدي أنّ صدرك لي دوِي
لسانك لي أرْيٌ وغيبُك علقم وشرّك مبسوط وخيرك ملتوي

وممّا ورد في تراثنا العربي حول لغة الجسد حديث فقهاء اللغة والبلاغيين عن حركة العين وما تؤديه من لغة حسَب حالاتها، وتبعا ذلك ستجد لكلّ حالة لغتها الخاصّة بها، فهناك العين الكارهة والمعجبة واللّوامة، والمستوضحة والدائرة والوجلة والمحدّقة وغيرها، وهو ما نلمسه مثلا عند الثعالبي(ت429ه) في قوله:"إذا نظر الانسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل: رمقه، فإن نظر إليه من جانب أذنه قيل لحظه، فإن نظر إليه بعجلة قيل: لمحه، فإن رماه ببصره مع حدّة نظرٍ قيل: حدجه، وفي حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه:(حدِّث القومَ ما حدجوك بأبصارهم)، فإن نظر إليه بشدّة وحدّة قيل: أرشقه وأسفّ النظر إليه، وفي حديث الشّعبي أنّه:(كره أن يُسِفَ الرّجل نظره إلى أمّه وأخته وابنته)[25] ، وقد جاء في العقد الفريد أنّ:"العين باب القلب، فما كان في القلب ظهر في العين، وقد روى الأصمعي عن غيره أنّه قال: إنّي لأعرف في العين إذا عرفت، وأعرف فيها إذا أنكرت، وأعرف فيها إذا لم تعرف ولم تنكر"[26]، وقد عقد بابا أسماه:"الاستدلال

باللحظ على الضمير"، فالعين ترجمان القلب، والمعربة عمّا يبدو فعلا وعمّا هو مكنون، ومن بلاغة التعبير بالعيون دون الكلام قول بشار بن برد:[27]

ومنتظرٍ رجعَ السلام بطــرفـه إذا ما انثنى يحكي لنا الغصنَ اللّدنا
إذا جعل اللّحــظ الخفيّ كلامَه جعلتُ له عيـــــني لتفهمــه أذنـــا
فلسنا على حمل الرسائل بيننا نريد ســـوانا مفهِـــماً حيثما كنّا
كفتنا بلاغات العيـــون حديثنا فقُمن بحاجـــات النفوس لنــا عنّا

ولعلّ في الشواهد التي جاء بها ابن جنّي في هذا الباب ما يؤكّد فعلا دور هذه اللغة في نقل المعنى والتّصرّف فيه على وجهه الصحيح:

متى أنامُ لا يؤرقني الكَرِي ليلاً ولا أسمعُ أجراس المِطي

بإشمام القاف من(يؤرقني)، يقول ابن جنيّ:"ومعلوم أنّ هذا الإشمام للعين لا للأذن، وليست هناك حركة البتّة"[28]، وبالتالي فالإشمام الذي هو ضمّ الشفتين دون إحداث صوت أمر يدركه البصير دون الضرير، وعلى هذا الأساس فالإشمام ضرب من الحركات الجسمية عامّة، وحركة الشفاه خاصّة، وذو دلالة نحوية[29]. ومن لغة الجسد التي نجدها عند ابن جني حركة العين أو تلك الإيماءة لتي تبديها، حيث التفت إل ملحظ مهمّ وهو أنّ اللغة الصامتة من شأنها أن تؤدّي معانيَ مثلما تؤدّيها اللغة الصائتة، مستشهدا بهذا البيت من الشعر:[30]

وقالت له العينان سمعا وطاعة وأبدتْ كمثل الدرّ لماّ يُثقّب

فقد تلمّس ابن جنّي(ت392ه) دلالة قول العينين مشيرا إلى التجوّز الذي يكتنف هذا التركيب، إذ لا قول لهما على الحقيقة، ولكن لغة الجسد، وهيئة العينين في هذا السياق بخاصّة قد أذِنتا بتحقّق معنى الطاعة والولاء[31]، ومن ألطف ما نقرأه في كتاب الخصائص حول هذه اللغة تلك الالتفاتة الجميلة التي تحدث بين استماع الأذن ومقابلة العين، يتمثّل هذا في بيت من الشعر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو وُدّ إذا كانا

لنجده يكرّر ذلك المعنى الذي يجمع بين الإشارة والعبارة على نحو ما رأيناه عند الجاحظ وابن رشيق وأضرابهما، حيث يقول:"أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلا على ما في النفوس، وعلى ذلك قالوا: ربّ إشارة أبلغ من عبارة، وحكاية الكتاب من هذا الحديث، وهي قوله(ألا تا)، و(بلى فا). وقال لي بعض مشايخنا رحمه اللّه: أنا لا أحسن أن أكلّم انسانا في الظّلمة"[32]، ولا إخالنا نبالغ إذا قلنا إنّ حديث الظلمة الذي يقصده ابن جنّي بعيد عن لغة الجسد، بل هما سيّان، فلغة الجسد - في أغلب الأحوال-ليست ممّا يستغني عنه المتحدّث. فبها يحدث الإعراب، وتكون الإبانة.

03- لغة الجسد المرتبط بالسلوك الحركي للعين:

ليس من المعقول أن نغفل عن الحركات العينية المرتبطة بأنواع الانفعال، مثل شخوص البصر أثناء الدهشة، فقد جاء في الذّكر الحكيم قوله تعالى:" وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا"[33]، أو إدارتها يمينا أو شمالا عند الخوف، قال تعالى:" أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ"[34]، ووظيفة العين والطرف في التعبير عن معان خاصّة، نحو قول جرير:[35]

فغُضّ الطّرف إنّك من نميْرٍ فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

أو قول الشاعر:

ترى عينُها عيني فتعرف وحيَها وتعرفُ عيني بما به الوحي يرجِع

ومن تعبيرات العين والوجه قول زهير بن أبي سُلمى:[36]

متى تك في صديق أو عدوّ تخبّرك الوجوهُ عن القلوبِ

أو قول العباس بن الأحنف:[37]

يدلّ على ما بالمحبّ من الهوى تقلّب عينيه إلى شخص مَن يهوى
وإنْ أخمر الحبّ الذي في فؤاده فإنّ الذي في العين والوجه لا يخفى

ومن ألطف ما نجده في شعرنا العربي حول هذه المعاني قول أبي تمام :[38]

أليْس عجيباً أنّ بيتاً يضمُّني وإيّاكِ لا نشكو ولا نتكلّمُ
إشارة أفواهٍ وغمزُ حواجب وتكسير أجفانٍ وكفّ يسلّم
ألْسُنُنا ممنوعة عن مرادنا وأبصارنا عنّا تجيبُ وتفهمُ

وهو ما نتمثّله في قوله تعالى:" وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ"[39]، وقوله تعالى:" فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ"[40].

04- لغة الجسد المرتبط بالسلوك الحركي للوجه واليد:

ومن جميل ما نقرأه من شعر يخصّ تعرب عنه لغة الجسد حول الوجه واليد ما ورد في صكّ الوجه، وهي حادثة امرأة تشتكي على لسان شاعر:

تقول - وصكّت وجهها بيمينها- أبعلي هذا بالرّحى المتقاعسُ؟

وقد علّق عليها ابن جني مستشفّا فضل رواية هذه الحركة الجسدية في تعزيز المعنى، حيث:"جُعِلت هذه الحركة الجسدية كالمَنبهة على فرط التعجّب والإنكار والتعاظم، ولنا أن نتصوّر أنّ ثمّ مخبَرا، وأنّ ثمّ معايِنا لهذا الحدث الكلامي، فمن ذا الذي يقنع اللغوي أنّ دلالة الحدث القارّة في نفس المعايِن هي كالتي عند المخبَر؟ إذ إنّ المعايِن قد كان سمع الصائت، وعاين الصامت، أمّا المخبَر فلم يكن له حظّ إلاّ بالوصف والتّمثيل من الصامت"[41]، وفي هذا يقول ابن جني:"فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرّحى المتقاعسُ؟، من غير أن يذكر صكّ وجهها لأعلَمنا أنها كانت متعجِّبة منكِرة، لكنه لمّا حكى الحال فقال: وصكّت وجهها، عُلِم بذلك قوّةُ إنكارها وتعاظُمُ الصورة لها، هذا مع أنّك سامع لحكاية الحال، غيرُ مشاهدٍ لها، ولو شاهدتها لكنتَ بها أعرفَ، ولِعِظَمِ الحال في نفس تلك المرأة أبيَنَ، وقد قيل: ليس المخبَر كالمعايِن، ولو لم ينقُل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله:"وصكّت وجهها"، لم نعرف به حقيقةَ تعاظمِ الأمر لها"[42]، ليت شعري، أليس هذا هو لغة الجسد برمّتها قد وفّاها ابن جنّي حقّها، ولو أنّنا لم نجد غير هذا لم ينقصنا في بيانها وفضلها شيء.

ثانيا: لغة الجسد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ.

نقل معنى خاصّ الخاصّ:

يقول الجاحظ:"ففي الإشارة بالطّرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس"[43]، وهي لمحة كنّا ذكرنا فائدتها في نقل معنى ما دون أن يعلم به الجميع، وهذا الاتّصال لن يكون دون معونة لغة الجسد. بل يحسن أن تَسبِقَ الإشارةُ اللفظَ في مثل هذه المواضع، وهو ما اصطلح عليه الجاحظ"خاصّ الخاصّ" تكملةً لقوله السابق:"ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاصّ الخاصّ ولجهلوا هذا الباب البتّة". ومن النماذج التي استدلّ ما جاء في هذه الأبيات:[44]

وللقلب على القلب دليل حين يلقاهُ
وفي العين غِنى للمر ء أن تنطق أفواهُ أفواه

وهذا البيت:[45]

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو وُدّ إذا كانا

وقول الآخر:

ترى عينُها عيني فتعرف وحيَها وتعرف عيني ما به الوحيُ يرجِعُ

فإذا لاحظنا هذه النماذج الشعرية وجدناها تبيّن فضل العين في التواصل والإبانة، وقد فسّر بعضهم هذا بأنّ العينين قارّتان في مركز محوريّ من الجسد[46]، فلا غرو عندئذ أن نجد القدامى من لغويين وأدباء قد اهتموا بما يصدر عن العين من رسالات وإيحاءات. ومن وظائف العين في استعمالات الجاحظ:

بسط الوجه رسالة ترحيب وإكرام:

فلغة الجسد التي تحملها تقاسيم الوجه تعبير أبلغ من النطق بعبارات الترحيب، وطريقها أبين في التواصل، وقد تنبّه الجاحظ إلى هذا فقال:"إنّ العرب نجعل الحديث والبسط والتّأنيس والتّلقيّ بالبشر من حقوق القِرى، ومن تمام الإكرام"[47]، وهو ما عبّر عنه حاتم الطائي:[48]

سَلِي الجائع الغرثان يا أمّ منذر إذا ما أتاني بين ناري ومَجزري
هل أبسُط وجهي أنّه أوّل القرى وأبذلُ معروفي له دون منكري

إفشاء السلام: فقد تغني لغة الجسد عن لغة اللسان والبيان، فتعرب عن أمور كثيرة، ومنها إفشاء السلام، وهو ما يتكرّر كثيرا عند الشعراء قديما، من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:[49]

أشارت بطرف العيْن خيفةَ أهلها إشارة مذعور ولم تتكلّم
فأيقنتُ أنّ الطّرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيّم

وهو مثال ساقه الجاحظ بغرض بيان لغة الجسد التي تنطق بها العين المسلّمة تحاشيا للحضور، وهروبا من الحرج، فتكون رتبة لغة الجسد متقدّمة على رتبة اللفظ.

بلاغة التعبير عند الإشارة بالسيف أو الثوب وما يتبعها من حركات:

ولعلّ من ألطف ما نقرأه في البيان والتبيين أيضا استعانة بعضهم بتوابع لأعضاء الجسد، تكون معوانا على كشف حالات تعتري صاحبها، وهو عين ما استعان به الحجّاج حين خطب في أهل العراق كاشفا عن وجهه قائلا:

أنا ابنُ جلا وطلاّع الثّنايا متى أضع العمامة تعرفوني

فلغة الحجاج في هذا الموضع لغة جسدية فعلية أكثر قبل أن تكون قولية، أراد تمرير رسالة تهديد ووعيد، أعربت عنها حركة العمامة واطّراحها إذ يغدو صاحبها حاسر الرّأس وهي الجدّ والتّشاغل عنها بهم[50]، فيظهر لنا أنّ الجاحظ لم يغفل عن دور هذه المميّزات التي تصاحب المتكلّم، فقد:"يتهدّد رافع السيف والسّوط فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادّا، وقد يكون وعيدا وتحذيرا"[51]، ثمّ استشهد بهذا البيت الشعري:[52]

في كفّه خيزران ريحه عبق بكفّ أروعَ في عرنينه شممُ

وإذا انتقلنا إلى لغة الجسد من البيان والتبيين في جانبها النثري فإنّنا لا نعدم الجاحظ يستدلّ بنماذج كثيرة لا تقلّ شأنا عن سابقتها، ومن ذلك حديثه عن مواضع اليد وهيئات الجلوس ومختلف النظرات.

هيئة الجلوس:

ومنها جلسة الأنوَك الأحمق، حيث يرسم لنا الجاحظ بتعبيره مشهدا كاريكاتوريا تصفه بالخائف المذعور، وهي تلك الجلسة التي يعند صاحبها إلى ناحية من البيت مع شدّة ما عليه من انقباض واشتمال، يقول:"لمّا أُدخل على امرأته فرأت منه ما رأت من الجفاء والجهل، وجلس في ناحية منقبضا مشتملا "[53]

وظيفة اليد في التعيين:

وقد أورد الجاحظ في بيان ذلك خطبة مصعب بن الزّبير رضي اللّه عنهما[54]، حيث استعان بيده ليعيّن الأماكن المراد تبيانها، وهو أثناء ذلك يتلو ثلاث آيات من القرآن، إذ أشار إلى بيده إلى الشام عند قراءة قوله تعالى:" إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ "[55]، وإلى الحجاز عند قوله تعالى:" وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ "، وإلى العراق عندما قرأ قوله تعالى:" وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ "[56].

نظرة العداوة:

وقد استدلّ عليها بنموذجين، وكان القرآن الكريم أوّل دليل له، ففي قوله تعالى:" وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ"[57] ، وقد مرّ معنا مثل هذا الجانب الذي تغدو فيه دلالة الوصف والإشارة أبلغ من التعبير[58].

معاني العجب والكبر:

وهو ملمح ذكيّ أشاد ببيانه الجاحظ وتقصّيه، ومفهوم العجب عند الجاحظ متعدّد المظاهر والتّجليات، فقد يكون هذا المعنى:"بالرّافد الصامت والكلاميات، كأن يتلفّظ بذلك، أو بألفاظ دالّة على هذا المعنى، أو بالرّافد الحركيّ المنتسب إلى مبحث الصّمتيات، كثني العطف أو إسبال الثوب، وقد أبان الجاحظ عن المعنيين كليهما فقال:"وإنّما العجب إسراف الرّجُل في السّرور بما يكون منه، والإفراط في استحسانه، حتى يظهر ذلك في لفظه وفي شمائله، وهو الذي وَصَف به صعصعةُ بن صوحان المنذرَ بن الجارود عند عليّ بن أبي طالب - رضي اللّه عنه- فقال: أما إنّه مع ذلك لنظّار في عِطفيه، تفّال في شراكيه، تعجبه حمرة برديه"[59]، وهذه المحطّات هي فيض من غيضٍ مما جاء في البيان والتبيين حول لغة الجسد، وما يتبعها من حركات الجسم وإيماءاته، إذ تصبح هذه اللغة أبلغ بكثير ممّا تؤدّيه الجمل والنّصوص، أو الأقوال والحكايات، لهذا لم يعدم تراثنا اللغوي بعامة، والبلاغي بخاصّة هذه المقاصد الجليلة في التواصل والمشاركة، بل طوّعها وأخضعها إلى طرق معلومة، فغدت لغة الجسد وجها آخر للغة الحرف العربي وبيانه، ومنافسا له جنبا إلى جنب تحتاج إلى مزيد عناية ونظر.

الإحالات:

---

2 -- أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط03، دت، ج01، ص 75.

3 - المصدر نفسه، ج01، ص 75.

4 - محمد العبد، الإشارة والعبارة دراسة في نظرية الاتصال، ص144.

5 - المرجع نفسه، ص 144.

6 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج01، ص 76.

7 - المصدر نفسه.

8 - المصدر نفسه، ج1، ص 77.

9 - المصدر نفسه، ج1، ص 79.

10 - المصدر نفسه، ج1، ص 78.

11 - المصدر نفسه، ج1، ص 79.

12 - المصدر نفسه، ج1، ص 79.

13 - أبو عثمان الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، 1969م، ط03، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ج01، ص 48.

14 - ديوانه، دار كتاب العربي، بيروت،، ط01، 1992م، ص 309.

15 - أبو عثمان الجاحظ: كتاب الحيوان، ج06، ص 08.

16 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص 106.

17 - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق مصطفى كمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط03، دت، ص 152.

18 - الجاحظ: كتاب الحيوان، ج01، ص 94.

19 - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، حقّقه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ط02، 1984م، ص 383. وأبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، دت، دط، ص136. وابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط01، 1981م، ص 208.

20 - أبو الحسن الرماني: النّكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد خلف اللّه، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، دط، دت، ص 98.

21 - أبو الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حقّقه وفصّله: محمد محيي الدين، دار الطلائع، القاهرة، ط1، 2005م، ج01، ص 256.

22 - المصدر نفسه، ج01، ص 256.

23 - المصدر نفسه، ج01، ص 256.

24 - عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط01، 1986م، ج03، ص 132.

25 - ابن الجوزي: غريب الحديث، تحقيق: عبد المعطي أمين قعلجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ، ط1، 1985م، ج01، ص 195. والحديث الآخر ينظر: المصدر نفسه، ج01، ص 484.

26 - ابن عبد ربّه: العقد الفريد، شرح أحمد أمين، وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، دار الأندلس، بيروت، دط، 1996م، ج02، 115.

27 - إبراهيم الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق يوسف طويل، دار الكتب العلمية، دط، 1997م، ج02، ص 190.

28 - أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، حقّقه: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط1، 2006م، ص 93.

29 - مهدي سعد ضرار: البيان لا لسان، دراسة في لغة الجسد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م، ص 127.

30 - أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ص60.

31 - مهدي سعد ضرار: البيان لا لسان، دراسة في لغة الجسد، 127.

32 - أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ص 208.

33 - سورة الأنبياء، الآية 97.

34 - سورة الأحزاب، الآية 19.

35 - شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل عبد اللّه الصاوي، دت، دط، المكتبة التجارية، مصر، دط، دت، ص 75.

36 - الديوان، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2005م، ص 17.

37 - الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، دط، 1986م، ص 18.

38 - الديوان: فسّر ألفاظه ووقف على طبعه: محيي الدين الخياط، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، ، دط، دت، ص 462.

39 - سورة الشورى، الآية 45.

40 - سورة محمد، الآية 20.

41 - مهدي أسعد عرار: البيان بلا لسان، ص 130.

42 - أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ص 130.

43 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج01، ص 78.

44 - علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه-، *ديوانه*، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2005م، ص 153.

45 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج01، ص 78. ابن جني: الخصائص، ص 208.

46 - مهدي أسعد عرار: البيان بلا لسان، ص 81.

47 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص 10.

48 - الديوان، دار صادر، بيروت، دط، 1981، ص 187.

49 - الديوان دار كتاب العربي، بيروت، ط1، 1992م، ص 309. الجاحظ: البيان والتبيين، ج01، 218.

50 - مهدي أسعد عرار: البيان بلا لسان، ص 85.

51 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج02، ص 308.

52 - شرح ديوان الفرزدق: إيليّا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981م، ج02، ص 354

53 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج02، 225.

54 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج02، ص 300.

55 - محمد العبد، الإشارة والعبارة دراسة في نظرية الاتصال، مكتبة الآداب، القاهرة، دط، 2008م، ص100.

56 - سورة القصص الآية 06

57 -سورة القلم الآية 54.

58 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج10، ص 10.

59 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص 100.